بودلير يكتب عن ادغار آلن بو

قصة "القط الأسود"

ترجمة خالدة سعيد

مقدّمة بودلير

كتب الشاعر الفرنسي ألفرد دي فيني كتاباً خاصاً لكي يبرهن فيه أنّ الشاعر لا يستطيع أن يجد له مركزاً أو مكاناً جيداً في أي مجتمع، سواء كان ديموقراطياً أو أرستوقراطياً، جمهورياً أو ملكياً.

في هذه الفكرة الكثير من الصحّة. ولئن كانت الذّاكرة تعوزنا أحياناً لاستحضار الأمثلة من التاريخ، فإن الحاضر الذي نعيشه يقدّم لنا المزيد منها ويغنينا عن التذكر.

إدغار آلن بو، أحد الأمثلة.

إنّ حياة الشاعر وعاداته وسلوكه وكيانه الجسمي وما يشكل مجموع شخصيّته ـ هذا كله يبدو لنا شيئاً مُعتماً ومشعاً في آن واحد. كانت شخصيّته فريدة آسرة، تتميّز، مثل نتاجه، بطابعٍ من الكآبة لا حدود له. ورغم أنه كان صغير البنية، مُرهف الملامح، فقد كان أكثر من قويّ وكان البأسُ يتفجّر من قسماته. كأنّ الطبيعة تمنح مزاجاً حيوياً شديداً لهؤلاء الذين تريد أن تأخذ منهم الأشياء الكبيرة، كما تمنح الحيوية الهائلة للأشجار التي قدر لها أن ترمز إلى الحداد والألم.

كان سلوكه مزيجاً غريباً من الكبرياء والعذوبة الوادعة، وكل شيء فيه يشير إلى أنه كائنٌ مصطفى. كان أشبه بهؤلاء الذين يعبرون فيجذبون أعين الذين يرونهم ويملأون ذاكرتهم. وربما يجهل الكثيرون أنه كان يمتاز بحساسية مدهشة اختُصّت بها المرأة الفرنسية، فكان يعرف أن يتزين بلا شيء، ويعرف أن يحوّل الكوخ إلى قصرٍ من نوعٍ جديد. ثمّ، ألم يضع، بأصالةٍ وتفرد، مشاريع كثيرة لزخرفة البيوت وتأثيثها، وتصاميم لبيوت ريفية وحدائق، ومخططات لتحسين الريف وتجميله؟

تقول السيدة فرانسيس أوزغود F. Osgood إحدى صديقاته في رسالة لها: «لم تتعرّف عليه امرأةٌ إلا أحست بجاذب عميق نحوه. وكنت أراه دائماً مثالاً للأناقة والامتياز وشرف النفس». وتحدثت عن لقائهما الأول حين طلب إليها رأيها في قصيدته ـ «الغراب» فقالت: «الموسيقى الخفيّة الساحرة في هذه القصيدة الفريدة نفذت إلى أعماقي حتى أنني حينما عرفتُ أنه كان يرغب في إهدائها إليّ، أحسستُ بشعور غريب يُشبه الرعب. وأقبل، برأسه الجميل الشامخ، وعينيه الكئيبتين المليئتين بنور فريد ـ من الفكر والعاطفة، وهيئته الوديعة المتعالية في آنٍ واحد وبشكل لا يُفَسَّر؛ ـ حيّاني هادئاً، رصيناً، بارداً تقريباً؛ لكن، تحت هذه البرودة، كان يتململُ تعاطفٌ واضحٌ أثر فيّ أعمق التأثير. وصرنا صديقين منذ هذه اللحظة حتى موته...

«... ظهرت لي شخصيته بأبهى أضوائها، في دخيلته البسيطة الشعرية معاً. كان مَرِحاً، عاطفياً، روحيّ النزعة، وديعاً تارةً شيطاناً تارةً كطفلٍ مدلل؛ ... أما بالنسبة للحب، فأعتقد أن زوجته هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبّاً حقيقياً دائماً».

ليس في قصص (بو) حبٌّ، بالمعنى الخالص لهذه الكلمة. لعله كان يعتقد أن النثر ليس لغةً في مستوى هذه العاطفة

(*) رأينا لمناسبة هذه الترجمة العربية لبعض آثار إدغار آلن بو، أن بودلير هو أفضل من يقدمه للقراء العرب؛ ونثبت هنا مقاطع من مقدمة كتبها الشاعر الفرنسي الكبير بعنوان «إدغار بو، حياته وأعماله» حين قام بترجمة هذه الأعمال إلى الفرنسية.

الخارقة التي يكاد يستحيل التعبير عنها؛ ذلك أن شعره، على النقيضِ، مُشبعٌ مليءٌ بالحب. الحب في شعره رائع، مكوكب، تغطيه دائماً كآبة لا شفاء منها. وفي جنَّة أرنهايم (آخر قصة في هذه المختارات) يؤكد أن الشروط الأولية الأربعة للسعادة هي: الحب، الحياة في الهواء الطلق، التخلص من كل طموح، وخلق جمال جديد. فليس في نتاجه كله، رغم موهبته المعجزة في المرعب والمضحك، فقرة واحدة تتصل بالدعارة أو حتى بلذات الجسد. والصور التي يقدمها عن النساء، صور تحيط بها الهالات؛ إنها مرسومة بلهفة المتعبد ولهجته، مغمورة بضبابٍ سماويٍّ شفَّافٍ.

أما عن السُّكْر الذي أثر عنه وانتقد عليه كثيراً، فيقول الذين كانوا يعرفونه حقَّ المعرفة إن كمية قليلة من الخمر أو الشراب كانت تكفي للتأثير فيه. ويسهل، من ناحية ثانية، الافتراض أن شاعراً عاش في مثل وحدته وشقائه الهائلين، يبحث أحياناً عن لذة النسيان في الشراب. الأحقاد والشتائم الأدبية، دُوار اللانهاية، آلام الحياة اليومية، مشاكل البؤس ـ من هذا كله كان يهرب إلى سواد السُّكر، إلى ما يشبه القبر التمهيدي. وهو لم يكن يشرب كما يفعل الكحوليّ المنهوم، بل كما يشرب الرجل الخشن القاسي بنشاط واقتصاد في الوقت، كما لو أن في داخله شيئاً يريد أن يقتله. ثم إن صفاء أسلوبه وإحكامه، ووضوح تفكيره، وحماسه للعمل ـ هذا كله لم يكن يتأثر إطلاقاً بعادة سُكره.

أكيد أنه ليس في السكر تتابع أحلام وحسب، بل أيضاً سلسلة من الأحكام التي تحتاج، كي تظهر ثانية وتتكاثر، إلى الوسط الذي نبحث عنه. أريد أن أقول إن سكر (بو) كان في حالات كثيرة وسيلة للتذكر، ومنهج عمل؛ وكان هذا المنهج خلاَّقاً ومميتاً، لكنه كان يلائم طبيعته الجامحة. فلقد اهتمَّ أن يشرب، كما يهتم الأديب الكثير التدقيق بتدوين يومياته وملاحظاته. كان يعجز أن يقاوم رغبته وشوقه إلى الالتقاء بعوالم الرؤى العجيبة والتصورات البالغة النعومة واللطف، ممَّا رآه في عاصفة ماضية؛ كانت هذه المعارف والصداقات القديمة تجذبه إليها بطغيان، وكان يسلك إليها الطريق الأكثر خطراً، لكن الأكثر استقامة. إن جزءاً مما يخلق سرورنا واستمتاعنا اليوم، هو نفسه الذي أماته.

ولد إدغار آلن بو في بوسطن عام ١٨١١. كانت أمه ممثلة إنكليزية هرب معها أبوه وتزوَّجها، ثم أصبح ممثلاً، وظهر مع زوجته على عدَّة مسارح. مات الزوجان في آن واحد تقريباً، تاركين للفقر المدقع ثلاثة أطفال بينهم إدغار آلن بو. كان جميل الملامح، نحيلاً، شاحب اللون. تبنته فرانسيس آلان، زوجة تاجر غنيّ اسمه جون آلان، كان بخيلاً وقاسياً. أخذاه معهما في رحلة إلى إنكلترا وإيكوسيا وإيرلندا. ثم تركاه عند الدكتور برانسبي الذي كان يدير معهداً تربوياً في بلدة قرب لندن. وقد وصف (بو) هذا المعهد في قصته «وليم ولسن». وحين ترك هذا المعهد التحق بجامعة في ريتشموند، فتميَّز بذكائه المعجز وغرابة شخصيته. وقد اعتبر والده بالتبنّي هذه الغرابة سلوكاً سيئاً وقطع عنه المعونة المالية، فاضطرَّ إلى ترك الجامعة.

اشترك، في أشدّ فترات بؤسه، في مسابقتين للشعر والقصة وقد فاز بجائزتيهما، إلا أنه لم يمنح غير جائزة واحدة. وقد أبدى رئيس اللجنة رغبته بالتعرف إليه، ثم ساعده فأوجد له عملاً في إحدى المجلات الصادرة في ريتشموند. هكذا وجد نفسه، وهو في الثانية والعشرين من عمره، مديراً لمجلة أدبية ومسؤولاً عنها. وقد أدهش قراءه بسلسلة من قصصه ذات النوع الجديد، ومقالاته النقدية الجريئة، الواضحة الصارمة، مما دفع المجلة في طريق التقدم والشهرة. ورغم ذلك اختلف (بو) مع صاحب المجلة، فتركها وكان قد تزوج، وأخذ يشرد مع زوجته الفتية من مكان إلى آخر. وبعد أن ماتت زوجته اشتدت عليه وطأة العذاب والبؤس حتى مات.

ماذا أقول عن نتاج هذا العبقري المفرد؟ طالما قيل عنه: «أدب انحطاط!» هذا قول فارغ نسمعه كثيراً يسقط مع رنين التثاؤب المنتفخ في أفواه الكائنات السفنكسية التي لا سرّ فيها والتي تسهر على الأبواب المقدسة في ممالك الجمالية الكلاسيكية. ليسمح لي هؤلاء الحكماء أن أسألهم إذا كانوا يدركون بطلان حكمتهم وعدم جدواها. «أدب انحطاط»، عبارة تضمر وجود سلّم من الأنواع الأدبية ـ أدب ولادة، أدب طفولة، أدب مراهقة... ألخ؛ أعني أن هذه العبارة تفترض في الأدب وتطوره نوعاً من الحتمية والعناية الإلهية.

هذه الشمس التي كانت، منذ هنيهة، تصعق الأشياء كلها بنورها الأبيض المستقيم، ستغمر، بعد قليل، الأفق الغربي بألوانٍ من كل نوع. بعض الشعراء يجدون لذة جديدة في لعب هذه الشمس التي تموت؛ يكتشفون فيه صفوفاً أخَّاذة من الأعمدة، وشلالات من المعدن الذائب، وجنَّات من النار، وبهاء حزيناً، وغبطة ندم، وطلاسم حلم، وذكريات أفيون. ويبدو لهم غروب الشمس أشبه بروح مليئة مثقلة بالحياة تهبط

وراء الأفق حاملة ذخراً هائلاً من الأحلام والخواطر. هذا ما لم يفكر فيه الأساتذة السفنكسيون؛ فمثل هذا التعقد في حركة الحياة، وهذا التوافق الغريب الممكن، وهذا الجديد ـ لا يعني شيئاً لحكمة التَّتلْمذ، وروح المدرسة.

المخيلة عند إدغار آلن بو هي ملكة الطاقات الروحية. لكنه يعني بهذه الكلمة شيئاً أعظم مما يعرفه عامة القراء. ليست المخيلة التوهم؛ ليست كذلك الحساسية وإن كان صعباً تصور إنسان خياليّ غير حساس. المخيلة طاقة شبه إلهية، تكتشف، بعيداً عن المناهج الفلسفية وخارجها، العلائق الحميمة بين الأشياء، وأسرارها وتطابقها وتجانسها. وهو يمنح لهذه الطاقة أهمية ووظيفة إلى درجة أن العالم الذي يخلو منها عالم مزيف أو على الأقل، عالم ناقص.

تحقّق المخيِّلة أغرب النتائج، وتجني الكنوز ـ لا الأغنى والأثمن (فهذه وقفٌ على الشعر) بل الأكثر عدداً وتنوعاً، في القصَّة القصيرة. إن (بو) يؤثرها على القصَّة الطويلة، لكثافة تأثيرها وكلّيته ووحدة الانطباع الذي تولّده؛ ـ حتى أن الأقصوصة تفضل، من هذه الناحية، القصة القصيرة. الإيقاع ضروري لنمو فكرة الجمال، التي هي هدف القصيدة الأكبر والأسمى. لكن حيل الإيقاع عقبةٌ في وجه هذا النمو الدقيق للأفكار والتعابير التي تتخذ الحقيقة موضوعاً لها. وكثيراً ما تكون الحقيقة هدف القصة القصيرة؛ والتعليل هو أفضل أداة لبناء قصة قصيرة كاملة. لهذا يقدر هذا النوع الأدبي، غير المهيَّأ لعلوٍّ عظيم كعلو الشعر الخالص، أن يقدم نتاجاً أكثر تنوعاً وقابلية للانتشار. نضيف إلى ذلك أن كاتب القصة القصيرة يمتلك عدداً كبيراً من الإمكانيات التعبيرية لا تصحّ في الشعر الخالص.

ليس إدغار آلن بو كبيراً، بعدته الأدبية المعجزة وحسب، بل أيضاً بحبه للجميل، وإدراكه شروط انسجام الجمال، وبشعره العميق الحزين، الشفاف المحكم كالجوهرة، وبأسلوبه العجيب الصَّافي الخارق المسرود كالدِّرع، السهل الممتنع الذي يهدف، أول ما يهدف، إلى دفع القارىء بليونة ويُسر نحو الهدف المقرر؛ أخيراً، على الخصوص، بهذه العبقرية التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة، فائقة، آسرة، مرعبة ـ كل ما هو غريبٌ واستثنائي في نظام الحياة والفكر.

يدخل القارىء إلى عالمه كما يدخل إلى دوَّامة، بهدوء ودون عنف. إن زهوه يفاجىء ويترك الفكر في يقظة. نشعر أوّلاً أن ثمة شيئاً جليلاً. ثم تنعرض رويداً رويداً، قصة تكمن لذاتها كلها في زيغان الذهن زيغاناً لا يُدرك، في تصور غير منتظر، في فرضيَّة جريئة، في تهور بين مزالق الطبيعة ـ وهذا كله يجري في مزيج غريب من الطاقات الروحية الغريبة. وإذ يتحد القارىء بهذا الدُّوار يُضطر إلى متابعة الكاتب في سرده القصصي الجذَّاب.

لم يتحدث أي إنسان بسحر أروع من سحر حديثه عن الاستثناءات والمفارقات في الحياة الإنسانية وفي الطبيعة: ـ نهايات الفصول المثقلة بالبهاء المُسكر؛ الساعات الدافئة، الرطبة الضبابية حيث الريح الجنوبية تُرخي الأعصاب كالحبال، وحيث تمتلىء العيون بدمع لا يأتي من القلب؛ التهاويل التي تفتح الطريق أولاً للشك، ثم لا تلبث أن تصير مقنعة، مليئة بالبراهين كالكتاب؛ العبث الذي يسكن في البصيرة ويحكمها وفق منطق رهيب؛ التهيج العصبي الذي يغتصب الإرادة ويذللها؛ التناقض القائم بين الأعصاب والفكر؛ الإنسان المتصدّع إلى درجة التعبير عن الألم بالضَّحك. إنه يحلّل أكثر الأشياء هروباً وتفلتاً من التحليل، يزن ما لا يُوزن، يصف بطريقة محكمة وعلمية مخيفة، هذا العالم الخيالي الذي يتموَّج حول الإنسان العصبي ويتحكم به ويقوده. إن إدغار آلن بو، شأنه في ذلك شأن دولاكروا الذي ارتفع بفنّه إلى مستوى الشعر العظيم، يحبّ أن يحرك أشكاله على أرض بنفسجية وخضراء حيث يتجلّى وميض العفن ورائحة العاصفة. الطبيعة المسماة ميتة، تشارك طبيعة الكائنات الحية؛ ومثلها ترتعش رعشة كهربائية خارقة. الأفيون يعمّق الفضاء، يعطي معنى سحرياً للاصباغ ويجعل الأصوات تهتزّ برنين أكثر دلالة. وكثيراً ما تفاجئنا فلتاتٌ رائعة من الكلام والضوء واللون في ما يقدمه لنا. ونلمح بغتة مدناً شرقية وهندسات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البُعد، حيث الشمس تمطر الذَّهب، وحيث الغرابةُ جزءٌ من الجميل لا يتجزَّأ.

هذا الشخص الذي اجتاز الأعالي الفنية الوعرة، وغاص في مهاوي الفكر الإنساني، واكتشف، عبر حياته الشبيهة بالعاصفة التي لم تهدأ، طرائق جديدة وأشكالاً مجهولة، لكي يدهش الخيال ويروّي العقول الظامئة أبداً إلى الجمال؛ ـ هذا الشخص مات فوق أحد المقاعد في الشارع، عام ١٨٤٩، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً.

(عن الفرنسية)

قصة «القط الأسود»

لست أتوقع منكم، بل لست أطلب أن تصدّقوا الوقائع التي أسطّرها هنا لقصة هي أغرب القصص وإن كانت في الآن عينه مألوفة للغاية. سوف أكون مجنوناً لو توقعت أن تصدقوا ذلك، لأن حواسّي ذاتها ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته. غير أنني لست مجنوناً ـ ومن المؤكد أنني لا أحلم. وإذا كنت ملاقياً حتفي غداً فلا بدَّ لي من أن أزيح هذا العبء عن روحي.

ما أرمي إليه هو أن أبسط أمام العالم، بوضوح ودقة، وبلا أي تعليق، سلسلة من الوقائع العادية جداً. إنها الوقائع التي عصفت بي أهوالها ـ واصلت تعذيبي ـ ودمرتني. مع ذلك لن أحاول تفسيرها. وإذا كنت لا أجد فيها غير الرعب فإنها لن تبدو للآخرين مرعبة بقدر ما ستبدو نوعاً من الخيال الغرائبي المعقد. قد يجيء في مقبل الأيام ألمعيّ حصيف يبيّن له تفكيره أنَّ هذا الكابوس مجرد أحداث عادية ـ وربما جاء ألمَعيٌّ آخر أكثر رصانة وأرسخ منطقاً، وتفكيره أقل استعداداً للإثارة من تفكيري، ليرى في الأحداث التي أعرضها بهلع مجرد تعاقب مألوف لأسباب طبيعية ونتائجها المنطقية.

عُرفت منذ طفولتي بوداعتي ومزاجي الإنساني الرقيق، حتى أنَّ رقة قلبي كانت على درجة من الإفراط جعلتني موضوع تندّر بين زملائي. وقد تميّزتُ بولع خاص بالحيوانات مما جعل أبويّ يعبّران عن تدليلهما لي بإهدائي أنواعاً من الحيوانات المنزلية. مع هذه الحيوانات كنت أمضي معظم أوقاتي ـ ولم أعرف سعادة تفوق سعادتي حين كنت أطعمها وأداعبها. نمت هذه الطباع الغريبة مع نموّي، وكانت لي في طور الرجولة أكبر منابع المتعة. الذين عرفوا مشاعر الولع بكلب أمين ذكي سوف يفهمون بسهولة ما أود قوله عن مدى البهجة المستمدَّة من العناية بحيوان أليف. إنَّ في تعلّق الحيوان بصاحبه تعلّقاً ينكر الذات ويضحي بها ما يخترق قلب الإنسان الذي هيأت له الظروف أن يعاني من خسة الصداقة وضعف الوفاء عند الجنس البشري.

تزوجت في سنّ مبكرة، وقد أسعدني أن أجد في مزاج زوجتي ما لا يناقض مزاجي. وإذ لاحظت ولعي بالحيوانات المنزلية لم تترك مناسبة تمرّ دون أن تقتني منها الأجناس الأكثر امتناعاً وإيناساً. هكذا تجمَّع لدينا طيور وأسماك ذهبية، وكلب أصيل وأرانب وقرد صغير وقط.

كان هذا القط كبير الحجم بشكل مميّز، جميل الشكل، أسود اللون بتمامه، وعلى قدر عجيب من الذكاء. كانت زوجتي التي لا أثر للمعتقدات الخرافية في تفكيرها، حين تتحدث عن ذكائه، تشير إلى الحكايات الشعبية القديمة التي تعتبر القطط السود سَحَرَةً متنكرين. هذه الإشارات لا تعني أنها كانت، في يوم من الأيام، جادَّة حول هذه المسألة. أذكر هذا الآن لسبب وحيد هو أنه لم يرد إلى ذهني قبل هذه اللحظة.

كان بلوتو ـ وهذا هو اسم القط ـ حيواني المدلل وأنيسي المفضل. أطعمه بنفسي، ويلازمني حيثما تحركت في البيت. بل كنت أجد صعوبة لمنعه من اللحاق بي في الشوارع.

دامت صداقتنا على هذه الحال سنوات عديدة، تبدّل خلالها مزاجي وساء سلوكي بفعل الإدمان على المسكرات ـ (إني أحمرّ خجلاً إذ أعترف بذلك) ـ ويوماً بعد يوم تزايدت حدة مزاجي وشراستي، واستعدادي للهيجان. وتزايد استهتاري بمشاعر الآخرين. ولكم عانيت وتألمت بسبب التعابير القاسية التي رحت أوجهها إلى زوجتي. حتى أنني في النهاية لجأت إلى العنف الجسدي في التعامل معها. وبالطبع فقد استشعرت حيواناتي هذا التغيّر في مزاجي. ولم أكتفِ بإهمالها، بل أسأت معاملتها. وإذا كان قد بقي لبلوتو بعض الاعتبار مما حال دون إساءتي إليه، فإنني لم أستشعر إثماً في الاساءة إلى الأرانب أو القرد، أو حتى إلى الكلب، كلما إقتربت مني مصادفة أو بدافع عاطفي. غير أنَّ مرضي قد تغلب عليَّ ـ وأي مرض كالمسكرات ! ـ ومع الأيام حتى بلوتو، الذي صار هرماً، ومن ثمَّ عنيداً نكداً ـ حتى بلوتو بدأ يعاني من نتائج مزاجي المعتلّ.

ذات ليل كنت عائداً إلى البيت من البلدة التي كثر تردّدي إليها وقد تعتعني السكر؛ وخيَّل إليَّ أنَّ القط يتجنب حضوري، فقبضت عليه؛ وإذ أفزعته حركاتي العنيفة جرحني بأسنانه جرحاً طفيفاً، فتملكني غضب الأبالسة. وبدا أنَّ روحي القديمة قد إندفعت على الفور طائرة من جسدي، وارتعد كل عرق في هيكلي بفعل حقد شيطاني غذّاه المخدّر. فتناولت من جيب سترتي مطواة، فتحتها، وقبضت على عنق الحيوان المسكين واقتلعت عامداً إحدى عينيه من محجرها! إنني أحتقن، أحترق، أرتعد حين أكتب تفاصيل هذه الفظاعة الجهنمية.

لمَّا استعدت رشدي في الصباح ـ لمَّا نوَّمت هياج الفسوق الذي شهده الليل ـ عانيت شعوراً هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبتها، غير أنَّ ذلك كان في أحسن الحالات شعوراً ضعيفاً وملتبساً لم يبلغ منّي الأعماق. ومن جديد استحوذ عليَّ الإفراط في الشراب. وسرعان ما أغرقت الخمرة كل ذكرى لتلك الواقعة.

في هذه الأثناء أخذ القط يتماثل للشفاء تدريجياً. صحيح أن تجويف العين الفارغ كان يشكّل منظراً مخيفاً، لكن لم يبد عليه أنه يتألم. وعاد يتنقل في البيت كسابق عهده، غير أنَّه، كما هو متوقّع، كان ينطلق وقد استبدَّ به الذعر كلما اقتربت منه. كانت ما تزال لديَّ بقايا من القلب القديم بحيث ينتابني الحزن إزاء هذه الكراهية الصارخة يبديها لي كائن أحبَّني ذات يوم. لكن سرعان ما حلَّ الإنزعاج محلّ الحزن. وأخيراً جاءت روح الانحراف لتدفعني إلى السقوط الذي لا نهوض منه. هذه الروح لا توليها الفلسفة أي اعتبار. مع ذلك لست واثقاً من وجود روحي في الحياة أكثر من ثقتي أن **الانحراف** واحد من النوازع البدئية في القلب البشري ـ واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه سلوك الإنسان. من منّا لم يضبط نفسه عشرات المرَّات وهو يقترف إثماً أو حماقة لا لسبب غير كون هذا العمل محرَّماً؟ أليس لدينا ميل دائم، حتى في أحسن حالات وعينا، إلى خرق ما يعرف **بالقانون** لمجرد علمنا بأنه قانون؟ روح **الانحراف** هذه، هي التي تحرَّكت تدفعني إلى السقوط النهائي. إنها رغبة النفس الدفينة لمشاكسة ذاتها ـ لتهشيم طبيعتها ذاتها ـ لاقتراف الإثم لوجه الإثم ـ هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيراً الإجهاز عليه. فذات صباح، وعن سابق تصوّر وتصميم لففت حول عنقه أنشوطة وعلقته بغصن شجرة ـ شنقته والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم أمرّ مشاعر الندم؛ ـ شنقته **لعلمي** أنني بذلك أقترف خطيئة ـ خطيئة مميتة سوف تعرض روحي الخالدة للهلاك الأبدي، وتنزلها ـ إن كان أمر كهذا معقولاً ـ حيث لا تبلغها رحمة أرحم الراحمين والمنتقم الجبَّار.

في الليلة التي وقع فيها هذا الفعل الشنيع، استيقظت من النوم على صوت النيران. كان اللهب يلتهم ستائر سريري والبيت بكامله يشتعل. ولم ننج أنا وزوجتي والخادم من الهلاك إلا بصعوبة كبيرة. كان الدَّمار تامًّا. ابتلعت النيران كل ما أملك في هذه الدنيا، واستسلمت مذ ذاك للقنوط واليأس.

لم يبلغ بي الضعف مبلغاً يجعلني أسعى لإقامة علاقة السبب والنتيجة بين الفظاعة التي ارتكبتها والكارثة التي حلَّت بي. لكنني أقدّم سلسلة من الوقائع ـ وآمل ألاَّ أترك أي حلقة مفقودة في هذا التسلسل. في اليوم الذي أعقب الحريق ذهبت أزور الأنقاض. كانت الجدران جميعها قد تهاوت باستثناء جدار واحد. هذا الجدار الذي نجا بمفرده لم يكن سميكاً لأنه جدار داخلي يفصل بين الحجرات ويقع في وسط البيت، وإليه كان يستند سريري من جهة الرأس. وقد صمد طلاء هذا الجدار وتجصيصه أمام فعل النيران ـ وهو أمر عزوته إلى كون التجصيص حديثاً. أمام هذا الجدار كان يتجمهر حشد من الناس، وبدا أن عدداً كبيراً منهم يتفحَّص جانباً مخصوصاً منه باهتمام شديد. فحرَّكت فضولي تعابير تصدر عن هذا الحشد من نوع «عجيب!» «غريب!»؛ دنوت، لأرى رسماً على الجدار الأبيض كأنه حفر نافر يمثل قطاً عملاقاً. كان الحفر مدهشاً بدقته ووضوحه، وبدا حبل يلتف حول عنق الحيوان.

عندما وقع نظري لأول مرة على هذا الشبح ـ إذ لم أكن أستطيع أن أعتبره أقلَّ من ذلك ـ استبد بي أشدُّ العجب وأفظع الذعر. غير أنَّ التفكير المحلل جاء ينقذني من ذلك. لقد كان القط، على ما أذكر، معلّقاً في حديقة متاخمة للبيت؛ فلما ارتفعت صيحات التحذير من النار، غصت الحديقة فوراً بالناس ـ ولا بدَّ أن شخصاً ما قد انتزعه من الشجرة وقذف به عبر النافذة إلى غرفتي. وربما كان القصد من ذلك تنبيهي من النوم. ولا بدّ أنَّ سقوط الجدران الأخرى قد ضغط ضحية وحشيتي على مادة الجصّ الحديث الطلاء؛ إختلط كلس هذا الطلاء بالنشادر المتصاعد من الجثة وتفاعل به بتأثير النيران فأحدثت الرسم النافر الذي رأيته.

ومع أنني قدمت هذا التفسير لأريح عقلي ـ إن لم أكن قد فعلت ذلك لأريح ضميري ـ فإن المشهد الغريب الذي وصفته لم يتوقف عن التأثير في مخيلتي. وعلى مدى أشهر لم أستطع أن أتخلص من هاجس القط؛ خلال هذه الفترة عاودني شعور بدا لي أنه الندم، ولم يكن في الحقيقة كذلك. لم يكن أكثر من أسف على فقد حيوان، وتفكير بالحصول على بديل من النوع نفسه والشكل نفسه ليحل محله.

في إحدى الليالي، فيما كنت جالساً، شبه مخبول، في وكر من أوكار العار - إذ إنني أدمنت الآن ارتياد هذه الأماكن الموبوءة - جذب انتباهي فجأة شيء أسود فوق برميل ضخم من براميل الجن أو شراب الروم، البراميل التي تشكل قطع الأثاث الرئيسية في ذلك المكان. كنت طوال دقائق أحدّق بثبات في رأس البرميل، وما سبَّب دهشتي هو أنني لم أتبيَّن للحال طبيعة الشيء الواقف فوقه. دنوت ولمسته بيدي. كان قطاً أسود - قطاً كبيراً جداً - في حجم بلوتو ويشبهه تماماً باستثناء شيء واحد. إذ لم تكن في أي مكان من جسم بلوتو شعرة بيضاء واحدة؛ وكانت لهذا القط بقعة بيضاء غير واضحة الحدود تتوزع على منطقة الصدر بكاملها.

حالما لمسته نهض وأخذ يخط بصوت مرتفع ويتمسَّح بيدي، وبدا مسروراً باهتمامي له. وإذن هذا هو بالضبط ما كنت أبحث عنه. للحال عرضت على صاحب البيت شراءه، لكنَّ هذا أجاب بأنه لا يملكه ولا يعرف شيئاً عنه - ولم يره من قبل.

واصلت مداعبتي له، ولمَّا تهيأت للذهاب، اتخَّذ وضعية تبين أنه يريد مرافقتي. فتركته يصحبني، وكنت بين الحين والآخر أتوقف وأربت على ظهره أو أمسح رأسه. لمَّا وصل إلى البيت بدا أليفاً ولم يظهر عليه أي استغراب. وعلى الفور صار أثيراً لدى زوجتي.

أمَّا أنا فسرعان ما وجدت المقت يتصاعد في أعماقي. وكان هذا عكس ما توقعته. ولم أستطع أن أفهم كيف تعلق القط بي ولا سبب هذا التعلق الواضح الذي أثار اشمئزازي وأزعجني. وأخذ الانزعاج والاشمئزاز يتزايدان شيئاً فشيئاً ويتحولان إلى كراهية مريرة، فأخذت أتجنب هذا الكائن؛ كان إحساس ما بالعار، وذكر فظاعتي السابقة يمسكان بي عن إلحاق الأذى الجسدي به. وامتنعت، طوال أسابيع، عن ضربه أو معاملته بعنف؛ لكن تدريجياً - وبتدرج متسارع - أخذت أنظر إليه بكره لا يوصف وأبتعد بصمت عن حضورة البغيض كما أبتعد عن لهاث مصاب بالطاعون.

ما أكد كرهي لهذا الحيوان هو اكتشافي، صبيحة اليوم التالي لوصوله أنه مثل بلوتو، قد فقد إحدى عينيه. غير أنَّ هذا زاد من عطف زوجتي عليه، لأنها كما ذكرت، تملك قدراً عظيماً من المشاعر الإنسانية التي كانت ذات يوم ملامحي المميِّزة، ومنبعاً لأكثر المسرات براءة ونقاء.

كان هيام القط بي يزداد بازدياد بغضبي له. فكان يتبع خطواتي بثبات يصعب إيضاحه للقارىء. فحيثما جلست، كان يجثم تحت مقعدي، أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بمداعباته المقززة. فإذا نهضت لأمشي اندفع بين قدمَّي وأوشك أن يوقعني، أو غرز مخالبه الطويلة الحادة في ثيابي ليتسلق إلى صدري. ومع أنني كنت أتحرق في مناسبات كهذه لقتله بضربة واحدة، فقد كنت أمتنع عن ذلك بسبب من ذكري جريمتي السابقة إلى حدّ ما، لكن بصورة أخص - ولأعترف بذلك حالاً - بسبب الرعب من هذا الحيوان.

لم يكن هذا الرعب خوفاً من شرّ مادي مجسَّد - مع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك. يخجلني أن أعترف - أجل، حتى في زنزانة المجرمين هذه، يكاد يخجلني الاعتراف - بأن الرعب والهلج اللذين أوقعهما في نفسي هذا الحيوان ازدادا حدة بسبب من وهم لا يقبله العقل. كانت زوجتي قد لفتت إنتباهي، أكثر من مرة، إلى طبيعة البقعة البيضاء على صدر القط، والتي أشرت إليها سابقاً، تلك العلامة التي تشكل الفارق الوحيد بين هذا الحيوان الغريب وذاك الذي قتلته. ويذكر القارىء وصفي لهذه البقعة بأنها، على الرغم من إتساعها، لم تكن لها حدود واضحة؛ غير أنها، شيئاً فشيئاً - وبتدرج يكاد لا يلحظ، تدرج صارع عقلي لكي يدحضه ويعتبره وهماً - اكتسبت شكلاً محدداً بوضوح تام. صار لها الآن شكل أرتعد لذكر اسمه - هذا الشكل هو ما جعلني أشمئز وأرتعب، وأتمنى التخلص من الحيوان لو تجرأت - كان الآن صورة لشيء بغيض - شيء مروع - هو المشنقة! أوه - أي آلة شنيعة جهنمية للفظاعة والجريمة - للنزع والموت!

والآن لقد انحدرت إلى درك ينحط بي عن صفة الإنسانية! كيف ينزل بي حيوان بهيم - قتلت مثيله عن سابق تصميم - حيوان بهيم ينزل بي - أنا، الإنسان المخلوق على صورة الله العظيم - كل هذا الويل الذي لا يُحتمل! وا أسفاه! ما عدت أعرف رحمة الراحة لا في النهار ولا في الليل! ففي النهار لم يكن ذلك البهيم ليفارقني لحظة واحدة، وفي الليل كنت أهبّ من النوم مراراً يتملكني ذعر شديد لأجد لهاث ذلك الشيء فوق وجهي، وثقل جسمه الضخم - مثل كابوس متجسد لا قوى على زحزحته - يجثم أبدياً فوق قلبي!

وهكذا انهارت بقايا الخير الواهية فيّ تحت وطأة هذا

العذاب. وصارت أفكار الشرّ خدين روحي ـ أشدّ الأفكار حلكة وشيطانية . ازدادت مزاجيتي السوداوية حتى تحوّلت إلى كراهية للأشياء كلها والجنس البشري بأسره. وأخذت نوبات غضبي المفاجئة المتكررة التي لم أعد أتحكّم بها واستسلمت لها كالأعمى، أخذت تطال وا أسفاه زوجتي، أعظم الصابرين على الآلام.

رافقتني ذات يوم لقضاء بعض الأعمال المنزلية في قبو المبنى القديم حيث أرغمتنا الفاقة على السكنى. تبعني القط على الدرج وكاد يرميني، فاستشاط غضبي الجنوني؛ رفعت فأساً متناسياً ما كان من خوفي الصبياني الذي أوقفني حتى الآن، وسددت ضربة إلى الحيوان كانت ستقضي عليه لو أنها نزلت حيث تمنيت. غير أن يد زوجتي أوقفت هذه الضربة. كان هذا التدخل بمثابة منخاس دفع بغضبي إلى الهياج الشيطاني؛ انتزعت يدي من قبضة زوجتي ودفنت الفأس في رأسها. فسقطت ميتة دون أن تصدر عنها نأمة.

لمّا ارتكبت هذه الجريمة البشعة، جلست على الفور أفكر في التخلص من الجثة. عرفت أنني لا أستطيع إخراجها من البيت لا في الليل ولا في النهار دون أن أخاطر بتنبيه الجيران. مرت برأسي خطط عديدة. فكرت بأن أقطع الجثة إرباً ثم أتخلّص منها بالحرق. وفكرت في حفر قبر لها في أرض القبو. كما فكرت في إلقائها في بئر الحوش ـ وأن أحشرها في صندوق بضاعة وأستدعي حمّالاً لأخذها من البيت. وأخيراً اهتديت إلى أفضل خطة للتخلص منها. قررت أن أبنيها في جدار القبو. كما كان الرهبان في القرون الوسطى يبنون ضحاياهم في الجدران.

كان القبو مناسباً لمثل هذه الغاية. فقد كان بناء جدرانه مخلخلاً وقد تمّ توريق الجدران حديثاً بملاط خشن حالت الرطوبة دون تصلبه. وفوق ذلك كان في أحد الجدران تجويف بشكل المدخنة تمّ ردمه بحيث تستوي أجزاء الجدار. وتأكّد لي أن باستطاعتي انتزاع قطع الطوب من هذا التجويف وإدخال الجثة، وبناء التجويف ليعود الجدار كما كان بحيث لا ترتاب العين في أي تغيير.

ولم تخطىء حساباتي. استعنت بمخل لانتزاع قطع الطوب، وأوقفت الجثة بتأنٍ لصق الجدار الداخلي ودعمتها لتحتفظ بوضع الوقوف، فيما كنت أدقق لأعيد كل شيء إلى ما كان عليه. كنت قد أحضرت الملاط والرمل والوبر، فهيأت الخليط بمنتهى الدقة والعناية بحيث لا يميّز من الملاط السابق، وأعدت كل قطعة طوب إلى مكانها. عندما أكملت العمل أحسست بالرضا عن النتيجة. لم يكن يبدو على الجدار أدنى أثر يدل على أنه قد لمس. نظفت الأرض بمنتهى العناية ونظرت حولي منتصراً وقلت في نفسي: «لم يذهب جهدي سدى».

كانت الخطوة الثانية هي البحث عن الحيوان الذي سبب لي هذه الفاجعة الرهيبة، ذلك أنني قررت القضاء عليه. لو عثرت عليه في تلك اللحظة لما كان هنالك من شك في أمر مصيره؛ لكن يبدو أن الحيوان الذكي قد أدرك عنف غضبي فاختفى متجنباً رؤيتي وأنا في ذلك المزاج. يستحيل عليّ أن أصف أو أن أتخيّل عمق الراحة والسكينة التي أتاحها لروحي غياب ذلك الحيوان. لم يعد للظهور تلك الليلة. وهكذا، ولأول مرة منذ وصوله إلى البيت نمت بعمق وهدوء. أجل، نمت على الرغم من وزر الجريمة الرابض فوق روحي.

مرَّ اليوم الثاني ثم الثالث ولم يظهر معذّبي. ومن جديد تنفست بحرية. لقد أصيب الوحش بالذعر فنجا بنفسه نهائياً! ولن يكون عليّ أن أتحمّله بعد الآن! كانت سعادتي بذلك عظيمة! ولم يؤرق مضجعي وزر الجريمة السوداء إلاّ لماماً. جرت بعض التحقيقات وقدّمت أجوبة جاهزة. بل كانت هناك تحرّيات ـ غير أنَّ شيئاً ما لم يكتشف. وأدركت مستقبل سعادتي في أمان.

وفي اليوم الرابع بعد وقوع الجريمة جاءت فرقة من الشرطة إلى البيت بشكل لم أتوقعه وبدأت تحريات واستجوابات دقيقة. لكن بما أنني كنت مطمئناً إلى خفاء الجثة لم أشعر بأي حرج. سألني ضباط الشرطة أن أرافقهم إلى القبو، فلم ترتعد فيَّ عضلة واحدة. كان قلبي ينبض بهدوء كقلب بريء نائم. رحت أذرع القبو جيئة وذهاباً عاقداً ذراعي فوق صدري. إقتنع رجال الشرطة بنتائج بحثهم واستعدّوا للذهاب. كانت النشوة في قلبي أقوى من أن أكتمها. كنت أتحرَّق لقول كلمة واحدة، لفرط ما أطربني الانتصار، ولكني أزيد يقينهم ببراءتي.

«أيها السادة»، قلت أخيراً، لمّا كان الفريق يصعد الدرج، «يسرّني أن أكون قد بدّدت شكوككم. أتمنى لكم تمام الصحة ومزيداً من اللباقة. بالمناسبة، أيها السادة، هذا ـ هذا بيت مكين البناء» (في رغبتي العارمة لقول شيء

سهل، لم أجد ما أتلفظ به) ـ «إنه بيت مبني بشكل ممتاز. هذه الجدران ـ هل أنتم ذاهبون أيها السادة ؟ ـ هذه الجدران متماسكة تماماً»؛ وهنا، وبنوع من الزهو المتشنج، طرقتُ طرقاً قوياً على الجدار بعصا كانت بيدي، تماماً في الموضع الذي أخفيت فيه زوجة قلبي.

لكن ليحمني الله من مخالب إبليس الأبالسة! لم تكد اهتزازات ضربتي تغرق في الصمت حتى جاوبني صوت من داخل القبر! صرخة مكتومة متقطعة بدأت كبكاء طفل، لكن سرعان ما أخذت تتعاظم وتتضخم لتغدو صرخة واحدة هائلة مديدة شاذة غريبة وغير آدمية بالمرة ـ غدت عواء ـ عويلاً مجلجلاً يطلقه مزيج من الرعب والظفر، وكأنما تتصاعد من قيعان الجحيم تتعاون فيها حناجر الملعونين في سعير عذاباتهم والشياطين إذ يهلّلون للّعنات.

من الحماقة أن أحدّثكم عن الأفكار التي تلاطمت في رأسي. ترنّحت منهاراً وتهاويت مستنداً إلى الجدار المقابل. للحظة واحدة ظلّ فريق الشرطة مسمّراً على الدرج بفعل الرعب والاستغراب. وفي اللحظة التالية كانت بضع عشرة ذراعاً شديدة تهدم الجدار. انهار قطعة واحدة. كانت الجثة قد تحللت إلى درجة كبيرة وغطاها الدم المتجمّد، وهي تنتصب واقفة أمام أعين المشاهدين وعلى رأسها يقف القط الأسود الكريه بفمه الأحمر المفتوح وعينه الوحيدة النارية، القط الذي دفعتني أفعاله إلى الجريمة ثم أسلمني صوته الكاشف إلى حبل المشنقة. كنت قد بنيت الجدار والقط داخل القبر(*).

(*) من مجموعة «القط الأسود» التي ترجمتها خالدة سعيد تصدر هذا الشهر عن دار الآداب.

دار الآداب تقدم

مؤلفات الكاتب العربي الكبير
حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع
- القطاف (جـ ٣ من بقايا صور والمستنقع)
- الأبنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- الدقل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- مأساة ديمتريو
- ناظم حكمت: السجن: المرأة، الحياة.
- ناظم حكمت ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية
- كيف حملت القلم
- أدب الحرب

(بالاشتراك مع د. نجاح العطار)